الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

تأمّلات في الوصف الإلهيّ

"خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا"

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في عمق كلّ إنسان منّا تكمن أسئلة تحيّر العقل وتشغل القلب: لماذا خُلقنا لنعيش حياة قصيرة، ثم نواجه مصيراً أبدياًّ لا انتهاء له؟ أليس في هذا تناقض ظاهريّ بين محدوديّة العمل ولانهائيّة الجزاء؟

فهذه الأسئلة ليست مجرد تساؤلات فلسفيّة، إنّما هي مفتاح فهم أعمق لحقائق الوجود الإنسانيّ وطبيعة العدالة الإلهيّة، فالإنسان كائن استثنائي في الخليقة، فبينما تخضع الحيوانات لغرائزها، والملائكة لطبيعتها النورانيّة، يحمل الإنسان في داخله بُعداً لا محدوداً ألا وهو الرّوح....

فهذه الرّوح ليست مجرّد نفخة حياة، إنّما هي جوهر قادر على التوق للانهائيّ، والشوق للكمال المطلق، والتطلّع للحقّ الأبديّ، فعندما يحبّ الإنسان، فحبّه يتجاوز الحدود الزمنيّة، وعندما يطلب العدل، فهو يطلب عدالة مطلقة، وعندما يسعى للسعادة، فهو يبحث عن سعادة لا نهائيّة، فهذا التوق للامحدود ليس عبثاً في التكوين الإنساني، بل هو بصمة الخلود المطبوعة في فطرته....

وفي هذه الحياة الدّنيا، تعدّ كلّ لحظةٍ لحظةَ اختيار، وليس مجرّد اختيار بين خيارات محدودة، إنّما اختيار بين اتجاهين وجوديين:

اتّجاه نحو النّور والحقّ والجمال، أو اتّجاه نحو الظّلمة والباطل والقبح.....

وهذا الاختيار المستمرّ ينحت في الروح مساراً عميقاً، فيشكلّ الهويّة الحقيقيّة للإنسان، فالذي يختار الخير مراراً وتكراراً يصبح الخير جزءاً من كيانه، والذي يختار الشرّ يصبح الشرّ طبيعة متجذّرة في نفسه، والخلود في الآخرة وجه من وجوه استمرار هذه الطبيعة المختارة من قبلنا، فالجنة والنار ليسا مكانين خارجيين نوضع فيهما، بل هما الامتداد الطبيعيّ لما أصبحت عليه الروح في رحلتها الأرضية، فالروح التي تشبّعت بحبّ اللّٰه والخير تجد في الجنة البيئة المثالية لازدهارها، بينما الروح التي تلطّخت بالشرّ والظلم تجد في النار انعكاساً لحالتها الداخليّة....

فالخلود إذاً ليس عقاباً أو مكافأة خارجيّة، إنّما هو تحقّق كامل لحقيقة الذّات التي صنعناها بخياراتنا، فهو اللحظة التي تُكشف فيها الأقنعة وتبقى الحقيقة الخالصة للروح، وهنا تتجلّى حكمة الخلود:

في اللانهاية فقط يمكن لعدالة اللّٰه المطلقة أنْ تتحقّق تماماً....

فكلّ خير لم يُجازَ في الدنيا، وكلّ ظلم لم يُردّ، وكلّ دمعة لم تُمسح، وكلّ جهد لم يُثمّن، كلّها ستجد مداها الحقيقيّ في الخلود، والأهمّ من ذلك أنّ كلّ اختيار صغير قمنا به في الدنيا يكشف عن عمقه الحقيقيّ في الآخرة، فالكلمة الطيبة التي قلناها في لحظة صعبة قد تكون شجرة طوبى في الجنة، والظّلم الذي اقترفناه في غفلة قد يكون ناراً تحرق في الآخرة، فالخلود في الجنّة والنّار ليس استمراراً زمنياً فحسب، بل هو الكشف النهائيّعن حقيقة ما اخترنا أنْ نكونه، فهو اللحظة التي تصبح فيها أقنعتنا شفافة، وتبقى الحقيقة الصافية لما أصبحت عليه أرواحنا...

فمن هذا المنظور، يصبح فهم الخلود ليس مجرّد تساؤل عن المصير، إنّما دعوة للتأمّل العميق في كلّ لحظة نعيشها: من نختار أنْ نكون؟ وإلى أيّ اتّجاه تسير أرواحنا؟

وهنا تتجلّى العدالة الإلهيّة في أسمى صورها، بأنْ يعطي اللّٰه كلّ إنسان بالضبط ما اشتاقت إليه روحه حقاً، فالمؤمن الذي أحبّ النور سيجد في الجنة امتداداً أبدياً لذلك النور ومأوى له، والعاصي الذي آثر الظلمة سيجد في النار انعكاساً دائماً لما اختاره لقلبه ومثوى له....

فالأمر ليس عقاباً خارجياً أو ثواباً مفروضاً، إنّما هو تحقيق كامل لما صنعته كلّ نفس من نفسها، فكلّ روح تُخلّد في البيئة التي تتناغم مع طبيعتها الحقيقيّة، تلك الطبيعة التي شكّلتها واختارتها خلال رحلة الحياة الدنيا، وبهذا المنظور، تصبح كامل لحظات حياتنا الدنيا عبور سريع نحو الأبديّة من جهة ونحت دقيق لماهيّة تلك الأبديّة ذاتها من جهة أخرى، ماهيّة ذلك الخلود....

فالخلود، كلمة تحمل في طيّاتها كلّ معاني اللانهاية، وكامل أحلام الأبديّة، وجلّ مخاوف الاستمرار بلا انقطاع، فهي كلمة تجعل المؤمن يرقص قلبه فرحاً بوعد اللّٰه، وتجعل العاصي يرتجف خوفاً من وعيده، وعندما أراد اللّٰه سبحانه وتعالى أنْ يصف الخلود في كتابه العزيز، لم يكتفِ بكلمة واحدة، بل جمع بين الخلود و أبداً... فهذا التوكيد اللغوي ليس مجرّد زخرفة بلاغيّة، إنّما إعلان إلهيّ قاطع لا يحتمل الشك، فالخلود هنا مطلق، لا نهاية له، لا انقطاع فيه ولا تراجع عنه.

فلو تأمّلنا فكرة أن نعيش حياة بلا نهاية، وأنْ نستيقظ كلّ يوم ونحن نعلم أنّ اليوم لن ينتهي إلا ليبدأ يوم آخر، ثم آخر، ثم آخر... إلى ما لا نهاية، فهذا هو الخلود الحقيقيّ، وهذا ما وعد به اللّٰه عباده المؤمنين في الجنة، وحذّر منه العاصين في النار....

ولو تدبّرنا آيات القرآن الكريم لوجدناها لا تتعامل مع مفهوم الخلود كفكرة مجرّدة، إنّما كحقيقة كونيّة لها أبعادها النفسيّة والروحيّة والعمليّة، ففي قوله تعالى:﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾[البينة: 8]، فإنّه لا يصف مكاناً مجرّداً، إنّما يصف حالة وجوديّة جديدة تماماً، فالخلود في الجنة ليس استمراراً للحياة الدنيا بصورة مطولة، بل هو نقلة نوعيّة إلى مستوى مختلف من الوجود، حيث الخلود بلا موت، والشّباب بلا تغير، والنّعيم الذي لا ينفد، والحبّ الذي لا ينقطع، والمعرفة لا تتوقف عن النموّ، والقرب من اللّٰه الذي لا يعتريه ملل أو سأم....

ولو توقّفنا عند فكرة الخلود من منظور الروح البشرية، فإنّ أقرب ما يوضّحها، أنْ نتخيّل لو أنّنا في مكان نحبّه، مع أشخاص نودّهم، ونمارس أنشطة نستمتع بها، ونعلم علم اليقين بأنّ هذه اللحظات كلّها لن تنتهي أبداً ..وهذا هو حلم كلّ إنسان، وهذا تماماً ما وعد اللّٰه به المؤمنين في الجنة....

فالخلود في النعيم ليس مجرّد استمرار للمتعة، إنّما تحقّق كامل للذات الإنسانيّة، ففي الجنة، كلّ ما كان يعيق الإنسان عن تحقيق سعادته الكاملة في حياته الأمديّة ببدايتها ونهايتها سيزول؛ فلا مرض، لا موت، لا فقر، لا خوف، لا حزن، لا ندم على الماضي ولا قلق على المستقبل، فقط حاضر أبديّ من النعيم والسعادة لا نهاية له.....

ولكنْ، ماذا عن الوجه الآخر للخلود؟ ماذا عن أولئك الذين سيخلّدون في النّار؟

هنا تتحوّل كلمة الخلود من حلم جميل إلى كابوس مرعب، ففكرة أنْ نعيش عذاباً أبدياً في ندم لا ينتهي، في حسرة لا تنقطع، وأنْ نعلم أنّ هذا كله لن ينتهي أبداً، فكرة مرعبة، تؤرّق الفكر، وتقضّ المضجع، فبمجرّد التّفكير في خلود العذاب يجعل الإنسان العاقل يراجع حساباته، ويعيد النظر في أولوياته، ويسأل نفسه: هل يستحقّ أيّ متاع دنيويّ أنْ أخاطر به بسعادة أبديّة؟ هل تستحق أيّ شهوة أو معصية أنْ أقايضها بخلود في النعيم؟

إذاً فالخلود أيّاً كانت وجهته ومنتهاه، فإنّه سيحفّز الإنسان ليطرح تساؤلات فلسفيّة عميقة...

فمثلاً سيطرح تساؤلاً حول مفهوم الزمن وطبيعته، ففي الحياة الدنيا، نحن أسرى الزمن، نولد، نكبر، نشيخ، نموت، فالزمن محدود، والفرص قليلة، والحياة قصيرة، لكنّه في الآخرة، زمن مختلف، زمن لا نهائيّ، يعيشه الإنسان ويتحرّر من قيود الزمن الدنيويّ، ممّا يعني أنّ كلّ لحظة في الآخرة لها وزن مختلف، فلا عجلة، ولا قلق من فوات الوقت، ولا حسرة على زمن مضى، فكلّ لحظة ستكون ملكاً للإنسان إلى الأبد...

وهناك تساؤل حول بقاء شخصيّة الإنسان كما هي في الخلود، والإجابة القرآنية تقرّ بالإيجاب، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 25)، ولكنْ ستكون شخصيّة بصورة مُطهّرة ومُكتملة، ففي الجنة، ستكون أنت لكن بأفضل ما فيك، مُطهراً من كلّ نقص أو عيب، وفي النار، ستكون أنت أيضاً لكنّك ستكون محاطاً بعواقب اختياراتك الخاطئة...

ويصادفنا تساؤل عن طبيعة الحواس في الخلود الأبديّ، أهي ذاتها كما في الدنيا؟ وهنا يكون الجواب بأنّه مثلما أنّ المؤمن سيدخل الجنة بجسد جديد غير الجسد الدنيوي، جسد لا يهرم ولا يبلى، وبالتالي، ستكون نسخة متطورة ومثالية بشكل مطلق من حواس الدنيا لكونها من مستلزمات هذا الجسد الجديد الكامل، وكما أنّه في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإنّ الحواس ستكون على قدر من الكمال والجلال، لتستقبل ذلك النعيم المقيم، فهي الحواس ذاتها بمسمياتها في الدّنيا، ولكنّها تختلف في الكيفيّة والقدرة، ففي الجنة ستكون أكمل وأقوى وألذّ بما لا يمكن لعقل بشري في الدنيا أنْ يتصوّره، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ أَنْفُسُهُمْ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾(يس: 57).

ففي الجنة يرى المؤمن ما أعدّه اللّٰه له من النعيم، ويرى وجه اللّٰه الكريم، وهو أعلى نعيم على الإطلاق، فقد قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: 22-23)، ويسمع كلام اللّٰه وتهاني الملائكة بأنقى وأجمل ممّا سمعوا في الدنيا، وسيكون طعامهم وشرابهم لا مثيل له، لذيذاً بلا شوائب، وسيشمّون روائح الجنّة وإنّ "لريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا"، واللمس سيكون اللذة الحقيقيّة التي لا يصاحبها ألم أو تعب، فلا حرّ ولا برد مؤذٍ، إنّما نعيم دائم دونما انقطاع....

وتساؤل آخر حول السّعادة الأبديّة واستمراريّتها، ففي الحياة الدنيا، نجد أنّ أكثر الملذّات تفقد جاذبيّتها بالتّكرار، ولكنّ السّعادة الأخرويّة مختلفة نوعياً، فهي ليست مجرّد إشباع للرغبات الجسديّة أو النفسيّة، إنّما هي حالة وجوديّة من القرب من اللّه، من تحقّق الذّات، ومن الانسجام الكامل مع الكون والوجود....

وتساؤل عن نعيم الخلود في الجنّة، النعيم الذي لا ينتهي ووصفه، فقد وصف القرآن هذا النّعيم، الذي لم يقتصر على الملذّات الحسيّة، إنّما تعدّاها إلى نعيم أعمق وأشمل، ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾(سورة الإنسان: 22)، فالنّعيم في الجنة له بعد حسيّ مرتبط بالطعام الذي لا ينتهي، والشراب الذي لا يُسكر، والحور العين، والقصور، والحدائق والأنهار، فهذا كلّه موصوف بأنّه خالد، أيّ لا يفسد ولا يتغيّر ولا ينتهي، وله بعد روحيّ هو الأعظم، وهو مرتبط برضا اللّه سبحانه وتعالى ورؤيته، فهذا النعيم لا يمكن وصفه بكلمات، لأنّه يتجاوز كلّ ما يمكن أنْ يتصوّره العقل البشريّ، وله بعد اجتماعيّ، مرتبط بلقاء الأحباب، الأنبياء، الصالحين، الأهل والأصدقاء....

هذا ومن عجائب النعيم الأبديّ أنّه لا يعتريه ملل أو سأم، فهذا يتناقض مع طبيعة الحياة الدنيا إذ كلّ شيء يفقد بريقه بالتكرار، ولكنّ النعيم الأخرويّ مختلف لأنّه متجدّد باستمرار، متنوّع بلا حدود، ونابع من مصدر لا نهائيّ....

وهناك تساؤل عن الخلود في النار، في ذلك العذاب الذي لا ينقطع، فمن الصعب على الإنسان أنْ يتصوّر عذاباً أبدياً، لأنّ عقلنا مُبرمج على التّعامل مع الأشياء المحدودة، ولكنّ القرآن يصف عذاب النار بوضوح صارم،﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(النساء: 14)، فالعذاب في النّار ليس مجرّد ألم جسديّ، بل هو معاناة شاملة لعذاب جسديّ بنار تأكل الأجساد ثم تعيد تكوينها،﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء: 56)، وعذاب نفسيّ بندم لا ينتهي، وحسرة على الفرص الضائعة، ويأس من الخلاص، وعذاب روحيّ بالبُعد عن اللّه، والحرمان من رحمته ونوره..

ومن أهمّ التساؤلات التي تطرح حول الخلود، كيف يكون العذاب الأبديّ عادلاً لذنوب محدودة؟ والجواب يكمن في فهم طبيعة الذّنب نفسه، فالكفر والمعاصي الكبيرة ليست مجرد أفعال محدودة، بل هي مواقف وجودية من اللّه ومن الحقّ، فهنا رفض للحقّ الأبدي، فاستحقت عذاباً أبدياً..

فمن هنا يتّضح أنّ الإيمان الحقيقيّ بالخلود يُحدث ثورة في نظرة الإنسان للحياة، ففجأة، تصبح الحياة الدّنيا مجرّد محطة قصيرة في رحلة طويلة لا نهاية لها، وهذا الإدراك يغيّر كلّ شيء...

فالأولويات تتبدّل؛ فما كان مهماً يصبح هامشياً، وما كان هامشياً يصبح أساسياً..

والقلق يقلّ؛ فعندما نؤمن أنّ الحياة الحقيقيّة لم تبدأ بعد، فتصبح مشاكل الدنيا أسهل احتمالاً...

والأمل يزداد مهما كانت الظروف صعبة، فهناك نعيم أبدي ينتظرنا....

والدّافع للعمل الصالح يصبح أقوى للاستمرار في العطاء والبذل، لا لأجل الثواب وحسب، إنّما لأنّ هذا العمل سيصاحبنا على الأبد....

والخوف يتمّ التّحرّر منه، فالإيمان بالخلود في النعيم يحرر المؤمن من الخوف من الموت، من الفناء، من الضياع...

هذا وفي التّاريخ الإسلامي الكثير من الشّواهد لأناس عاشوا حياتهم بأكملها متأثرين بفكرة الخلود...

فهذا أبو بكر الصديق ينفق أمواله كلّها في سبيل اللّه، وعندما سُئل ماذا تركت لأهلك؟ قال: "تركت لهم اللّه ورسوله"، فهذا تجسيد لرجل آمن بالخلود فتحرّر من التعلّق بالفاني....

وذاك عمر بن الخطاب يبكي من خشية اللّه، ويقول: "لو نادى منادٍ من السماء أنّ الناس كلهم داخلون الجنة إلاّ رجلاً واحداً لخفت أنْ أكون أنا هو"، فهذا رجل عاش الخلود في قلبه قبل أنْ يصل إليه، وهو ذاته من كان يضع يده قريباً من النار ويقول لنفسه: "يا عمر، هل لك على هذا صبر؟" محذراً نفسه من عذاب الآخرة الذي لا ينتهي....

وها هو عثمان بن عفان يجهّز جيش العسرة من ماله الخاص، مؤمناً أنّ ما يقدّمه اليوم سيجده غداً مضاعفاً في الآخرة.....

ARAB-PSF.COM

فهؤلاء الرجال لم يكونوا يعيشون الخوف كحالة نفسيّة مؤقّتة، إنّما كان إيمانهم بحقيقة الخلود يدفعهم إلى مراجعة مستمرة لأعمالهم وأحوالهم، فكانوا يحاسبون أنفسهم قبل أن يُحاسبوا، ويزنون أعمالهم بميزان الآخرة قبل أن توزن عليهم...

واليوم ها قد حان دورنا لنعيش ذاك الخلود الذي عاشه من قبلنا، وذلك من خلال...

وعي الخلود، وهذا لا يعني الانقطاع عن الحياة الدنيا، بل العيش فيها بطريقة تخدم الحياة الأبدية، وهذا يتطلب التوازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، والوعي بأنّ كلّ لحظة لها أثر أبديّ، والمسؤوليّة في كلّ قرار نتخذه، والحكمة في ترتيب الأولويات...

الاستثمار في الخلود، وذلك بالاستثمار في العلاقة مع اللّٰه بالعبادة والذكر والدعاء، والاستثمار في العلاقات الإنسانيّة بالحب والعطاء، والاستثمار في المعرفة التي تنفع في الدنيا والآخرة، والاستثمار في العمل الصالح الذي يبقى أثره بعد الموت...

البحث عن المعنى الوجوديّ لحياتنا، وعن هدف سامٍ يستحقّ أنْ نعيش من أجله، فنحن موجودون لسبب، ونحن جزء من خطّة إلهيّة عظيمة، ونحن مُكلّفون برسالة في هذه الحياة، ومهيئون لحياة أخرى أبدية، وهذا الفهم هو ما يملأ الحياة بالمعنى والهدف والاتجاه...

فالخلود، في نهاية المطاف، دعوة للحياة بأكملها، دعوة لأنْ نعيش حياة ذات معنى، حياة تستحق أنْ تستمرّ إلى الأبد، وعندما تؤمن بالخلود، تصبح كلّ لحظة في حياتك ثمينة، وكلّ كلمة مهمّة، وكلّ عمل له وزن، فتصبح الحياة مغامرة عظيمة، رحلة إلى اللانهاية، قصة حبّ أبديّة مع الخالق العظيم، فالخلود يعلّمنا أنّ الموت ليس نهاية القصة، بل هو مجرّد انتقال إلى القصة الحقيقيّة التي تبدأ بعد الموت، والحياة الحقيقيّة التي تبدأ في الآخرة....

وأخيراً، أيّها العاقل، أيّ خلود تبتغي؟ أخلوداً في رضوان الرحمن أم خلوداً في عذاب النيران؟ اليوم وأنت في دار العمل تستطيع أنْ تحدّد مصيرك، وغداً في دار الجزاء لن يكون لك إلا ما قدّمت يداك.....

فلنعش اليوم بوعي الغد الأبديّ، ولنعمل اليوم لحياة لا تنتهي، ولنزرع اليوم ما نحصده إلى الأبد....